الكاتب المصري

رمضان ١٣٦٦ — أغسطس ١٩٤٧

السنة الثانية — مجلد ٦ — عدد ٢٣

تقـــــدمة

هذه قصة من قصص فولتير التى عنى فيها ببعض المشكلات الفلسفية العليا التى شغلت الناس دائماً ، وشغلت الفرنسيين بنوع خاص أثناء القرن الثامن عشر ، وهى مسألة القضاء والقدر ، ومكان الانسان و إرادته منهما .

وما أريد أن أتعمق قضية القضاء والقدر فى نفسها ، ولا أن أتعمقها بالقياس إلى الفلاسفة والمثقفين الذين عاصروا فولتير ، ولا أن أتعمقها بالقياس إلى فولتير نفسه . فنحن فى فصل الصيف ، وهو فصل لا يحتمل مثل هذا البحث الذى يكلف الكاتب والقارئ من العناء مايحتاج إلى حياة رائقة شائقة يستحب فيها النشاط ولا يشق فيها الجهد الذهنى .

وأنا بعد ذلك لم أفكر فى تقديم هذه القصة إلى القراء فى هذا الفصل الشديد إلا لأريح الزملاء الذين يشاركون فى تحرير هذه المجلة ، والقراء الذين يتفضلون بقراءتها ، من تكليف أنفسهم عناء الجد فى الكتابة والجد فى القراءة أثناء فصل القيظ . والراحة حق للكتاب كما هى حق للقراء . ولكن الراحة ألوان وأشكال ، فهناك الراحة التى يستمتع بها الانسان حين لايعمل شيئاً ، وهى راحة بغيضة لأنها عقيمة لا تنفع صاحبها ولا تنفع الناس . وهناك

الراحة التى يستمتع بها الانسان حين يتجه من العمل إلى ما يمتعه و يمتع الناس دون أن يشق على نفسه وعليهم ، وهذه هى الراحة الخصبة التى يدل لفظها على معناها دلالة صادقة ، والتى تعصم الانسان من الفراغ الفارغ الجدب الذى يميت القلوب ، وهى الراحة التى تلائم المثقفين من الكتاب والقراء جميعاً . فالرجل المثقف لا يبغض شيئاً كما يبغض الفراغ الجدب العقيم ، والراحة بالقياس إليه هى الانتقال من عمل مجهد مضن إلى عمل يجمع بين التسلية والمتاع . و إلى هذه الراحة قصدت حين فكرت فى أن أعفى محررى هذه المجلة من إنشاء بحوثهم المضنية ، وقراءها من العكوف على تفهم هذه البحوث ، وفى أن أعفى القراء فى الوقت نفسه من الفراغ الذى كانوا قد يضطرون إليه ساعات من نهار أو أياماً من شهر لو لم تقدم إليهم المجلة شيئاً ، وفى أن أترجم لهم آية أدبية رائعة يجدون فى قراءتها مايرضى حاجتهم إلى التفكير ، وحاجتهم إلى الراحة ، وحاجتهم إلى المتعة الأدبية الرفيعة فى وقت واحد . وأنا أحد الألوف أو الملايين من الناس — إن حسن ظننا بالناس — الذين يعجبون بأدب فولتير ، وينتهى بهم الاعجاب إلى الفتنة فى كثير من الأحيان ؛ لأن هذا الأدب لم يكتب له الخلود فحسب ، و إنما كتب له الخلود والشباب جميعاً . أو قل كتب له الخلود والشباب وملاءمة الحياة الانسانية على اختلاف العصور والبيئات والأجيال . ولن أقيم الدليل على شئ من ذلك ؛ فقد فرغ التاريخ الأدبى من إقامة الدليل عليه ، وهذه القصة نفسها ستدل عليه فى وضوح وجلاء و إقناع . وبما أظن القراء يكلفوننى أن أوثرهم بشئ لا أوثر به نفسى ، أو أن أحتمل فى سبيلهم من الجهد والمشقة مالا أحب أن أحتمله فى سبيل نفسى .

وقد قرأت هذه القصة مرات توشك أن تبلغ عشراً ، وأكبر الظن أنى سأقرؤها وأقرؤها ، وقد وجدت فيها وسأجد فيها دائماً متعة العقل والقلب والذوق . فاذا قدمتها إلى القراء فقد آثرتهم بما أوثر به نفسى ، ولم يظلمك من سوى بينك وبين نفسه .

وقد كتب فولتير هذه القصة حين كاد القرن الثامن عشر ينتصف سنة ١٧٤٨ وتكلف فنوناً من الجهد والحيلة ليطبعها خارج فرنسا ولينشرها فى فرنسا بعد ذلك ، وليستأنف طبعها فى فرنسا . ولولا ضيق الوقت ، وأنى فى

باريس مشغول بما يشغل به الانسان حين يلم بباريس ليقيم فيها وقتاً قصيراً وليرحل عنها بعد ذلك — لولا هذا لقصصت على القراء من جهد فولتير وحيلته فى نشر هذه القصة ، ثم من جحوده إياها وتنصله منها مخافة أن تجر عليه شرا ، ما فيه كثير من الفكاهة والتسلية . ولكنى أرجو أن أعود إلى هذا كله فى وقت قريب .

وقد مر بفولتير طور من أطوار حياته الأدبية قرأ فيه ترجمة « ألف ليلة وليلة » ، فشاقته وراقته ووجهته إلى دراسة أمور الشرق ، فغرق فى هذه الدراسة إلى أذنيه ، وأخرج للناس قصصاً شرقية بارعة كثيرة ، منها هذه القصة وأرجو أن يتاح لى أن أترجم لقراء العربية طائفة من قصصه الشرقية الأخرى .

وبطل هذه القصة فتى من أهل بابل ، يسميه فولتير زديج ، ونسميه نحن صادقاً . وقد كدت أضع صادقاً مكان زديج فى القصة كلها ، ولكنى آثرت أن أحتفظ لفولتير باسم بطله كما أراد هو أن يكون . وهذا الفتى البابلى المثقف الممتاز قد اختلفت عليه الأحداث وتعرض لكثير من المحن فى وطنه أولاً وفى الأوطان التى تغرب فيها بعد ذلك ، فى مصر وفى بلاد العرب وفى جزيرة سرنديب وفى سوريا ، وكانت هذه الأحداث والمحن كلها مخالفة المنطق الأشياء وطبيعة الحياة كما يراها الناس ؛ فقد كان يكافأ بالشر على الخير دائماً ، وكان يستقبل ذلك بالحيرة والاذعان وبالصبر والاحتمال ، حتى كوفئ آخر الأمر بما يلائم ذكاءه ووفاءه وثقافته و براعته وصبره واحتماله ، فأصبح ملكاً على الدولة البابلية العظمى .

ففى القصة إذن عرض لمشكلة القضاء والقدر كما يتصورها الشرقيون ، أو كما خيل لفولتير أن الشرقيين يتصورونها . وفيها حل لهذه المشكلة على نحو ماتصوره الفلاسفة منذ أقدم العصور ، وهو هذا الحل الذى لا يحل شيئاً ، والذى يلخص فى أن الانسان أقصر عقلا وأكلّ ذهناً من أن يفهم حكمة الخالق الذى أبدع العالم ووضع له مايدبره من القوانين . فما عليه إلا أن يكد ويجد ويعمل الخير ما وسعه أن يعمل الخير ، ويجتنب الشر ما أتيح له أن يجتنب الشر ، ولا عليه بعد ذلك أن تسره الأيام أو تسوءه ، وأن تسخطه الأحداث أو ترضيه .

ولكن فى القصة أشياء أخرى غير هذا العرض الفلسفى لمشكلة القضاء

والقدر ، هو الذى أتاح لها الخلود ، وهو نقد الحياة الانسانية من ناحيتها السياسية والاجتماعية والخلقية ، والنفوذ بهذا النقد إلى صميم الطبيعة الانسانية، وما ينشأ عن احتالها للحياة وتصرفها فيها من الخطوب . وواضح جداً أن فولتير قد اتخذ قصته هذه كلها وسيلة إلى نقد الحياة الأوربية عامة والحياة الفرنسية خاصة ؛ واتخذ مدينة بابل رمزاً لمدينة باريس ، وقصر بابل رمزاً لقصر باريس ومن أجل هذا أشفق من نسبة هذه القصة إليه . ومن أجل هذا فتن الفرنسيون بهذه القصة فى عصر فولتير ، ومازالوا يفتنون بها إلى الآن . ومن أجل هذا أعتقد أن قراء العربية سيجدون فى قراءة هذه القصة مايلائم حاجتهم إلى نقد الحياة الانسانية من ناحية السياسة والاقتصاد والاجتماع . فليقرءوا ، وليتفكروا ، وليتذكروا ، وليستريحوا إلى القراءة والتفكر والتذكر ، ثم لينتفعوا بعد ذلك بما يقرءون وما يتفكرون وما يتذكرون .

طه حسين

باريس ، يونيو ١٩٤٧